النظام الزراعي
في بلاد السوفييت

للدكتور محمد مأمون عبد السلام

بقية ما نشر في العدد الماضي

المزارع التجمعية

كان تسعة أعشار الروسيين إلى عهد قريب فلاحين ، وفي سنة ١٩٤١ كان الثلثان من سكان الروسيا السوفييتية يعيشون في القرى ، وكان أكثر من نصف السكان يعيشون على فلاحة الأرض ، فالزراعة في الروسيا كما في غيرها من البلاد سبيل للحياة لا وسيلة للعيش فقط كما يقول بذلك بافلوفسكي المؤرخ الزراعي الروسي ، وقد استمرت الزراعة في الروسيا وسيلة لعيش ملايين من الخلق وسبيلا لحياتهم ، أما الحياة الصناعية فإنها لا تزال وسيلة إضافية

وكان الفلاح الروسي قبل الثورة عبداً مسخراً لطبقة النبلاء والأشراف ، فحرره السوفييت ووضعوه على قدم المساواة بسكان البنادر ، ولا يزال الفلاح الروسي العمود الفقري للهيكل الاقتصادي السوفييتي ، فهو الذي يدفع نحو ثلاثة أسباع مصروفات الدولة غير ما يدفعه من الضرائب غير المباشرة ، وقد ضمنت له الحكومة مقابل ذلك حقوقه كاملة في نظام المزارع التجمعية التي هو عضو فيها ، وفتحت له أبواب الفرص على مصراعيها لتثقيف نفسه وأولاده وأبعدت عنه مشاق العمل الجسماني المضني في الزراعة بإدخال الزراعة الآلية الحديثة ونظمت له الإدارة تنظيما جعله يستفيد من أوقات فراغه الكثيرة بالثقافة الريفية العامة والتعليم الزراعي . فالفلاح في نظر السوفييت عامل كعامل المصنع لا يختلف عنه في شيء إلا في كونه يعمل في الهواء الطلق على نظام حساب القطعة فيختلف ما يتقاضاه من الأجر باختلاف مقدرته على الإنتاج .

وغرض السوفييت من إلغاء الزراعة الفردية التي كانت من خصائص النظام القديم القيصري وتحويلها إلى النظام الزراعي التجمعي هو أن تحول المزارع إلى مجموعة من مصانع زراعية يعمل فيها العمال تحت قبة السماء . وهذا النظام الجديد إنما هو وليد عبقرية مبتدعة لأنه نظام يجمع بين قوة الفردية ومزايا الاشتراكية ، وهو نظام غير ثابت في تفاصيله لأنه يتكيف حسب نتيجة التجارب والتعلم من الأخطاء طبقاً للعقيدة السوفييتية المشهورة المحببة إليهم . وقد استفاد السوفييت من المفعول السحري للألقاب على عقول الجمهور فاستبدلوا بألقاب الفلاحين التي كانت تشعرهم بالمهانة والتحقير أخرى ترفع نفسيتهم وتشعرهم بعزة النفس والأنفة ؛ فسموا « كلاف الخنازير » باسم « خبير الخنازير » ولقبت زوجته « بالليانة » وسمحوا لها بالالتحاق بالمجموعة النسوية في المزرعة التجمعية . ويعتبر السوفييت المزارع التجمعية في حرفة الزراعة كاتحادات العمال في الصناعة ؛ فهي عبارة عن هيئة تنظيم الفلاحين وتوحدهم لمصلحتهم ؛ وهي فضلا عن كونها هيئة تعاونية للانتاج فإنها تعمل في الوقت نفسه لمصلحة أعضائها من الفلاحين فتزودهم بإعانات أثناء مرضهم ، وبمعاشات عند بلوغهم السن ، وبالتعليم المجاني وتنظيم ساعات فراغهم من حيث الانتفاع بها في النوادي والرحلات والسياحات ، وتحصل لهم على خدمات خاصة من الحكومة كتعليم الأطفال والعناية بصحتهم وإنشاء مدارس الحضانة ورياض الأطفال وبيوت المساحات وإعطائهم أجازات سنوية أسبوعين في السنة بأجر كامل والقيام بجميع التأمينات لهم مجانا . ولا يشتغل الفلاح في هذه المزارع التجمعية أكثر من ثماني ساعات في اليوم .

أشكال المزارع التجمعية

والمزارع التجمعية على ثلاثة أشكال ، أبسطها ما كان عبارة عن شركة لزراعة الأرض أو رعي الماشية وتربيتها كما هو موجود فعلا في مناطق البدو في جمهورية قازقستان وفي بعض مناطق شمال القوقاز .

وأعقدها هي المزارع الشيوعية الكاملة التي تكون فيها الأرض والآلات والماشية وكافة المنشآت مندمجة في بعضها البعض ومشاعا بين أعضائها فيعيش الكل فيها معيشة شيوعية في مبان شيوعية ويأكلون من مطبخ واحد وفي غرفة طعام واحدة ، وليس لأحد منهم شيء خاص يمتلكه لنفسه اللهم إلا حوائجه الشخصية . ولا يزيد عدد هذه المزارع الشيوعية المطلقة عن ١ ٪ من المجموع الكلي للمزارع التجمعية . أما النوع الثالث وهو يكون الأغلبية الساحقة من المزارع التجمعية فهو المسمى « كلهوز » وفيها يحتفظ الأعضاء بمساكنهم الخاصة لكل عائلة بيتها وقطعة أرض ملحقة به لتزرعها العائلة لحسابها ولتربي فيها الدواجن والحيوانات الصغيرة لا يشاركهم فيها أحد ؛ وبذلك تحافظ كل عائلة على استقلالها في

معيشتها . أما ما يتبقى من أرض المزرعة وحيواناتها فتستغل على المشاع فيعطى كل فرد حقه من الإنتاج حسب مقدار عمله . وفى هذا النوع الأخير من المزارع التجمعية تظهر فردية المزارع وشخصيته ومقدرته على أوضحها . ويسمى السوفييت هذا النوع من المزارع التجمعية باسم « كلهوز » ومعناه بالروسية منشأة أو مزرعة اقتصادية تجمعية ، ويدل هذا التعريف على أن المزارع التجمعية ملك للدولة ولكن لأعضائها حق الانتفاع الدائم بها فى حدود قيامهم بالالتزامات التى يحتمها عليهم الدستور والقانون .

وقد بدأ عهد المزارع التجمعية فى سنة ١٩٢٩ ولم يمض عليه ثلاث سنوات إلا وأصبح ٦١٫٥ ٪ من الأراضى الروسية مزارع تجمعية وفى سنة ١٩٣٨ ارتفعت هذه النسبة إلى ٩٩٫٣ ٪ إذ بلغ عدد المزارع التجمعية فى جمهوريات الاتحاد السوفييتى ٢٤٢٫٠٠٠ مزرعة . وقد أصبحت بلاد السوفييت فى بدء هذه الحرب أكثر بلاد العالم مساحة فى الأراضى الزراعية وأعظمها تقدماً فى وسائل الزراعة الآلية الحديثة وذلك بفضل نظام الزراعة التجمعية . كما ازدادت بفضله مساحة ما يخص العائلة من أرض الزراعة من نحو ١٧ فداناً فى المتوسط فى العهد القيصرى (مع مراعاة أن نحو ٥٠ ٪ من فلاحى ذلك العهد لم يخص العائلة الواحدة منهم أكثر من ٢٫٥ إلى ٥ فدادين) إلى متوسط ٤٨ فداناً فى عهد المزارع التجمعية وإلى نحو ١٢٠ فداناً فى بعض المناطق مثل سيبيريا الغربية .

وتختلف مساحة مزرعة الكلهوز كثيراً من منطقة لأخرى ، فتبلغ مساحة الأرض المزروعة فيها أقل من ٦٠٠ فدان فى المناطق الشمالية وفى روسيا البيضاء والقوقاز وآسيا الوسطى الإسلامية . وتزيد عن ١٣٠٠ فدان فى أكرانيا وتبلغ نحو ستة آلاف فدان أو أكثر فى حوض الفولجا . وعلى العموم تبلغ مساحتها فى المتوسط نحو ١٦٠٠ فدان . ومتوسط عدد بيوتها أى عائلتها ٩٥ بيتاً ولكنها تكون أقل من خمسين بيتاً فى الشرق الأقصى والمناطق الشمالية وتبلغ ١٣٣ فى أكرانيا و١٥٢ فى شمال القوقاز

وقد زادت مساحة الأراضى المزروعة فى بلاد الاتحاد السوفييتى بفضل هذا النظام بمقدار ١١٠ مليون فدان فى سنة ١٩٤٠ عما كانت عليه فى العهد القيصرى فى سنة ١٩١٣ ، وهذه الزيادة تشمل نحو ٤٠ مليون فدان من الغلال ونحو ١٨ مليون فدان محصولات صناعية ونحو ١٥ مليون فدان بطاطس وأكثر من ٣٨ مليون فدان من محصولات العلف .

ويتراوح عدد بيوت (أى عائلات) المزرعة التجمعية الواحدة بين ٥٠ بيتا فى الشرق الأقصى والمناطق الشمالية النائية و ١٣٣ بيتا فى أوكرانيا و ١٥٢ بيتا فى شمال القوقاز . ولكن متوسطها كان قبل هذه الحرب ٧٨ بيتا وعدد أعضائها ٣٤٢ شخصا منهم ١٤٩ من العمال الشغالين الذين لا يقل عمر الواحد منهم عن ١٦ سنة

ويعمل عمال المزارع التجمعية فى نظام يشبه نظام عمال المصانع ؛ فمواعيدهم محددة ، ولكل فرقة رئيسها . ويعاقب المذنب بعقوبات تتناسب مع جرمه وذلك طبقا لأوامر الحكومة الصادرة فى أبريل سنة ١٩٣٨ التى تنص على أن أى عامل ذكراً كان أو أنثى يرتكب ما يخل بالنظام الداخلى للمزرعة يعاقب بالتوبيخ العلنى أو بالتشهير بكتابة اسمه على السبورة السوداء ، أو بتنزيله ، أو بإنزاله إلى عمل أدنى من عمله ، أو بتشغيله مدة معينة بدون أجر ، أو بالطرد من المزرعة بعد موافقة جمعيتها العمومية بأغلبية ثلثى الأعضاء

وتقبل المزارع التجمعية النساء فى عضويتها على قدم المساواة مع الرجال على أن يقمن بالعمل الذى يتفق مع طبيعتهن وأن يرتقين كما يرتقى الرجال وأن تقبض المرأة أجرها بنفسها ، فترتب على إعطاء الحرية للمرأة الفلاحة الروسية عدم تقيدها بقيود المعيشة المنزلية فأنشئت من جراء ذلك المطاعم العامة الشيوعية والمغاسل العامة وبيوت الحضانة ومعاهد الإطفال للعناية بهم أثناء عمل أمهاتهم فى النهار وأنشئت مدارس للأولاد الأكبر سناً .

وتدفع المزارع التجمعية ضريبة دخل للحكومة ولكن الضريبة الحقيقية هى ما يعود على الخزانة من البيع الجبرى لمحصولاتها ومنتجاتها . والواقع أن الفلاح الروسى يدفع الآن ضريبة مباشرة للحكومة بين ١٥ ٪ و ١٨ ٪ من مجموع محصولاته عدا الضريبة غير المباشرة التى يدفعها بالنسبة لاستهلاكه . وتجبى الحكومة الضريبة المباشرة عيناً فترتب على ذلك أن أنشأت الحكومة أهراء (Silo) للغلال التى تجبيها ليس لها مثيل فى العالم . ولا يمكن لأى دولة غير شيوعية أو اشتراكية أن تشيد مثلها . وأقامت الحكومة السوفييتية وسائل ومصانع للانتفاع بالمحصولات المختلفة الأخرى التى تجبيها عيناً كالألبان مثلا ؛ فأنشأت مصانع هائلة للألبان ومشتقاتها فى مناطق تربية الماشية ومصانع السكر فى مناطق زراعة البنجر وهلم جرا .

من هذا يتضح لنا أن نظام الزراعة التجمعية يتطلب دقة فائقة وعناية للانتفاع بمحصولات البلاد على أكمل وجه وتوزيعها توزيعاً اقتصاديا يعود بالنفع على كل فرد من أفراد الأمة . كما أنه يمكن

البلاد من الانتفاع بفضلات المحصولات انتفاعاً علمياً . والدليل على ذلك أن قومسارية الأغذية تنتفع بفضلات المحصولات إلى أقصى حد فى صناعة الأغذية فتحسنت بسبب ذلك حالة الأغذية فى المدن بعد سنة ١٩٣٣ .

ولا جدال فى أن جباية الحكومة ضريبة عينية من اللبن عن كل بقرة قد أدى إلى اهتمام الفلاحين بتحسين البقر الحلوب وإيجاد عشرات منه أكثر إدراراً. كما أن ازدياد حاجة الزراعة إلى الأسمدة أدى إلى الإكثار من الماشية وإلى إنشاء مصانع الأسمدة الكيميائية على نطاق واسع .

وقد أدت طريقة دفع الأجور على حساب القطعة إلى تسابق الفلاحين فى العمل ومباراتهم فى ابتداع الوسائل الكفيلة بسرعة إنجازه وإتقانه فزادت غلة المحصولات فى كثير من الحالات زيادة مدهشة

وقد أقام السوفييت فى سنة ١٩٣٩ — ٤٠ معرضا زراعيا عاما فى موسكو استعرضوا فيه أوجه نشاط المزارع التجمعية وإنتاجها ودرجة تقدم الحياة الاجتماعية فيها فاتضح منه جليا أن المزرعة التجمعية وحدة زراعية نموذجية للانتاج كاملة بعمالها وآلاتها الزراعية ومبانيها ومواشيها فهى تضم كل مستحدث فى الفنون الزراعية مما يسهل العمل لعمالها ويجلب الراحة والهناء والسعادة والرخاء والصحة لهم . وقد بلغ عدد حظائر تربية الماشية التابعة للمزارع التجمعية عند بدء الغزو الألمانى لبلاد السوفييت ٦٢٨٠٠٠ حظيرة تحوى نحو ١٨ مليون من حيوانات القصيلة البقرية و ٧ ملايين خنزير و ٣٣ مليون من الغنم والماعز . وفى كل مزرعة مهندس زراعى وخبير للتقاوى وخبير لتربية الماشية وطبيب بيطرى وخبير لفلاحة البساتين وميكانيكيين ، وقد بلغ عدد المتخصصين تخصصاً عالياً فى فروع الزراعة المختلفة فى المزارع التجمعية ببلاد السوفييت ٣٢٢٠٠٠ من مهندسين زراعيين وخبراء فى شتى شؤون الزراعة وبيطريين

وليس أدل على نجاح نظام المزارع التجمعية مما وصل إليه رخاء أعضائها . فقد وصل دخل الفلاح السنوى فى بعض المزارع التجمعية إلى ٢٤٠٠ روبل علاوة على ثلاثة أرادب مصرية وثلث أردب من القمح و ٦٠٠ رطل من الخضروات و ٣٠٠ رطل من البطاطس و ٣٠ لتر من الخمر بخلاف ما يحصل عليه من مزرعته الخاصة الملحقة ببيته وما يكسبه من إيوائه فى بيته للنزلاء الذين يفدون إلى الريف طلباً للنزهة والراحة .

ومما يدل على رخاء الفلاحين فى المزارع التجمعية نوع البضائع التى تعرض فى المخازن التعاونية فى القرية مثل : الجوارب والأحذية وأحمر الشفاه ، واسطوانات الجراموفون ، وساعات الحائط ، والدراجات ، والراديوات وغير ذلك من الكماليات التى لم يسبق للفلاح الروسى أن تمتع بها من قبل .

ويرجع رخاء الفلاح السوفيتى إلى عدة عوامل أخرى نذكر منها زيادة مساحة الأراضى الزراعية بالنسبة لعدد السكان ، وزراعة محصولات أخرى أكثر ربحاً ، وزيادة المنتجات الحيوانية ، وتحسين التسويق ، ونظام الأسواق ، وازدياد الدخل من موارد غير زراعية ، ونقص أثمان البضائع المصنوعة مقدرة على أساس أثمان المحصولات الزراعية ، ونقص الضريبة المفروضة على الفلاح وتخلصه من أثقال الربا وإيجارات الأرض والوصول إلى طريقة تقلل الفقد فى المحصولات فى عمليات الضم والدراس والتخزين وغيرها فقد أمكنهم باستعمال آلة الضم والدراس المزدوجة أن يقللوا الفقد فى محصول الحبوب بنسبة قد تصل إلى ٣٣ ٪ فى القمح

وقد أثرى الفلاحون فى المناطق الشمالية الوسطى من إنشاء مصانع الألبان ، ومن زراعة الخضروات والبطاطس والمحصولات الصناعية . كما أنهم استفادوا من امتداد منطقة زراعة القمح شمالا فى أراض كانت تعتبر فى الماضى غير صالحة لإنتاج المحصولات الغذائية

ويدل ما تخطه أقلام الكتاب السوفيتيين على أن الفلاح الروسى قد أصبح سيد نفسه له حق التمتع بما تنتجه عبقريته ويداه لا يشاركه فى إنتاجه أحد . فقد كتب بوريسوف عن الفلاح وهو يخاطب القديس تقولا العجائبى : « لمن أيها القديس العزيز يجب أن تكون الأرض والحقول والقرى » فأجابه القديس تقولا : « إليكم يا إخوتى وإلى أبنائكم ، نعم إليكم دون غيركم ».

ويقول الكتاب الروس بلسان رجل المستقبل وهو يخاطب الشعب : « أنا لا أتكلم إليكم عن الجنة التى وعدكم بها المسيح بل أكلمكم عن جنة الدنيا التى هى للجميع ماعدا ضعفاء النفوس »

ويقول الكتاب بلسان الفلاحين الروسيين : « نحن الذين لم نكن شيئاً فأصبحنا الآن كل شىء » . ويقولون أيضاً : « الأرستقراطية الحديثة هى أرستقراطية العمال المهرة الفنيين ، فهؤلاء هم الذين يجب أن يتمتعوا بحقهم من الراحة والرياضة والتعليم والعناية بهم وبأطفالهم » .

محطات الجرارات والآلات الزراعية M. T. S.

رأى السوفيت أن تقدم الزراعة ووصولها إلى الذروة العليا

التي يرمون إليها لا يتم في بلادهم المتسعة الأرجاء الفسيحة السهول بغير استعمال الآلات الزراعية الميكانيكية الحديثة ، ولذلك أنشأت الحكومة نظام محطات الجرارات والآلات الزراعية (M. T. S.)

وتتوقف طبيعة المحطة على نوع المحصول الأساسي لكل منطقة سواء كان من القلال أو القطن أو بنجر السكر أو غير ذلك . ولما بدأت الحكومة السوفيتية التحول الجبري في سنة ١٩٣٠ من الزراعة الفردية إلى النظام التجمعي كان في الروسيا ١٥٨ محطة من هذه المحطات ملكا للحكومة و ٤٧٩ محطة تعاونية وكان عدد الجرارات في الروسيا أربعين ألف جرارة صالحة للأعمال الزراعية منها عشرة آلاف جرارة تابعة لمحطات الآلات الزراعية الحكومية . وهي صالحة لفلاحة المزارع التجمعية التي أنشئت في البلاد حديثاً .

ومن الدوافع الأساسية التي حدت بالسوفيت إلى تعميم نظام المزارع التجمعية هو جعل الزراعة بالآلات الميكانيكية الحديثة ممكنة واقتصادية ، ولذلك أنفقوا ملايين الجنيهات في بناء مصانع إنتاج هذه الآلات التي خرجت من طور التجربة إلى الإنتاج في نهاية سنة ١٩٣٣ إذ كان لديها مائة ألف جرارة . وجميع هذه المحطات حكومية تؤدي جميع ما يطلب منها من العمليات الزراعية في المزارع التجمعية التي أصبحت تعتمد عليها في ذلك فهي تقوم بالحرث والضم والحصاد والدراس وغير ذلك مقابل نسبة مئوية من محصول المزرعة تتراوح بين ١٠ — ٢٠ ٪ حسب قلة المحصول أو وفرته .

وقد كان نصف العمل الزراعي قبل الهجوم الألماني في الحرب الأخيرة يؤديه الخيل والنصف الآخر تؤديه الآلات . وقد بلغ عدد الخيول في المزارع التجمعية ٨٫٥ مليون حصان بمتوسط ٢٥٠ حصانا للمزرعة ، ولكل حصان ٢٩ فدانا ، ولكل مائة فدان من الأرض الزراعية ١٢ عاملا زراعياً عضواً في المزرعة التجمعية. وفي سنة ١٩٣٥ أصبحت محطات الآلات الزراعية تخدم نحو ثلاثة أرباع المساحة المزروعة في الاتحاد السوفيتي .

وقد بلغ عدد محطات الآلات الزراعية M. T. S. في بلاد السوفيت في سنة ١٩٤٠ مقدارا ٦٩٨٠ محطة خدمت نحو ٩٤/٥ ٪ من الأراضي المزروعة بالمزارع التجمعية ، وقد وفرت بعملها عمل ١١ مليون عامل . وقد بلغ عدد الجرارات في سنة ١٩٤٠ في الزراعة السوفيتية ٥٢٣٠٠٠ جرارة وآلات الضم والدراس المزدوجة ١٢٨٠٠٠ . وقد تمكن السوفيت بفضل محطات الآلات أن يدربوا في المدة بين سنة ١٩٣٣ — ١٩٤٠ عدد ٦٠٢٠٨ ميكانيكي و ١٠٦٣٠٢ رؤساء فرق سواق الجرارات و ٢٫٣٦٥٫١١٧ سواق جرارات و ٣٠٥٫٥٦٢ سواق لآلات الضم والدراس و ٢٫١٦١٫٢٦٨ مساعد سواق و ١٩٦٣٢٣ ميكانيكي لآلات الضم والدراس و ٢٠٧٢١١ سواق أتوموبيل ، وقد التحق كثير من هؤلاء بالفرق الميكانيكية في الجيش السوفيتي خلال هذه الحرب وكانوا من أقوى العوامل في النصر

والسبب في تركيز الآلات الميكانيكية الزراعية في محطات هو سبب اقتصادي ، لأن إدارة هذه الآلات وصيانتها تتطلب خبرة ومهارة خاصة لا تتوفر إلا في أناس يتخصصون لها ويكونون خاضعين لسلطة واحدة مكلفة بهذا العمل ومسئولة عنه في كل منطقة زراعية ويكون في متناولها كل وسائل إصلاح الآلات وصيانتها ، وهذا من مستلزمات الاقتصاد في المال والوقت والمجهود . وإشراف الحكومة الأشراف الكلي الكامل على كافة الأعمال الزراعية في البلاد لأن هذه المحطات ملك للحكومة وهي التي تقوم بجميع العمليات الزراعية في كافة البلاد مقابل جزء معين من المحصول يذهب طبعاً إلى الحكومة .

ونقطة الضعف الوحيدة في نظام محطات الآلات هي تأثر زراعة المنطقة تأثراً يتمشى مع سوء إدارة محطة الآلات في المنطقة .

وجميع سياقي الجرارات وميكانيكي الآلات المزدوجة للضم والدراس هم غالباً من الأعضاء العاملين في المزرعة التجمعية تدربهم محطة الآلات ليقوموا بالعمل في اشتداد الموسم ، وبهذه الطريقة تمكنت حكومة السوفيت من غرس العقلية الميكانيكية في الفلاح الروسي الذي أخذ ينظر إلى جراره نظرة صوفية لأن عليها رزقه كما ينظر الفلاح المصري إلى ماشيته . وقد علمت التجارب حكومة السوفيت أن من الأفضل لها اتباع سياسة المكافأة لكل عمل حسن يقوم به العامل بدلاً من التهديد عن كل عمل رديء يقوم به ولكنها لا تتغفل في الوقت نفسه عن معاقبة المهمل والمخطئ والمذنب في كل ما يعرض زراعة الدولة للخطر . ففي نهاية السنة يمنح مدير المحطة رؤساء العمل فيها مكافآت تتراوح من شهر إلى ثلاثة شهور ماهية إذا كانوا قد نفذوا مشروعهم وكان محصول المزرعة التي اشتغلوا بآلاتهم فيها قد وصل إلى معدله أو زاد عنه .

الدكتور محمد أمين عبد السلام
وكيل قسم النباتات بوزارة الزراعة المصرية